ترجمـــات

الحساب الختامي لأفغانستان الحروب المستمرة وتكاليف النسيان الجماعي

بقلـــم

كـارتـــــر مالكـاسيـــــان

ترجمة: صفـا مهـدي عسكـــر

تحرير: د. عمار عباس الشاهين

مركز حمورابي للبحوث والدراسات الاستراتيجية

2026

تأسس مركز حمورابي للبحوث والدراسات الإستراتيجية عام 2008 بمدينة بابل (الحلة)، وحصل على شهادة التسجيل من دائرة المنظمات غير الحكومية المرقمة 1Z71874 بتاريخ 2012/12/25، بوصفه مركزا علميا بحثيا يهتم بدراسة الموضوعات السياسية والمجتمعية، فضلاً عن الاهتمام بالقضايا والظواهر الراهنة والمحتملة في الشأن المحلي والإقليمي والدولي، ويتعامل مع باحثين من مختلف التخصصات داخل العراق وخارجه، وتحتضن بغداد المقر الرئيسي للمركز.

- لا يجوز إعادة نشر أي من هذه الأوراق البحثية الا بموافقة المركز، وبالإمكان الاقتباس بشرط ذكر المصدر كاملا.
- لا تعبر الآراء الواردة في الورقة البحثية عن الاتجاهات التي يتبناها المركز وانما تعبر عن رأي كاتبها.
- حقوق الطبع والنشر محفوظة لمركز حمورابي للبحوث والدراسات الاستراتيجية.

للتواصل

العراق - بغداد - الكرادة

+964 7810234002

hcrsiraq@yahoo.com

www.hcrsiraq.net

مركز حمورابي للبحوث والدراسات الاستراتيجية

قبل خمس سنوات انتهت الحرب الأمريكية في أفغانستان التي استمرت 20 عاماً بنهاية مخزية، ففي نيسان 2021 بدأت الولايات المتحدة انسحابها النهائي من البلاد بهدف سحب 2500 جندي أمريكي كانوا لا يزالون فيها بحلول أيلول، وفي غضون أسابيع من بدء مغادرة القوات الأمريكية اجتاحت حركة طالبان عشرات المواقع في وقت أخذت فيه قوات الحكومة الأفغانية بالانهيار والتلاشي. وبحلول أوائل آب كانت الحركة قد سيطرت على معظم عواصم الولايات، وأخيراً في 15 آب 2021 انهارت الحكومة المدعومة من الولايات المتحدة في كابول، واحتشد مئات الآلاف من الأفغان المذعورين حول مطار المدينة. وتمكنت الولايات المتحدة وحلفاؤها وحتى مجموعات من المواطنين العاديين من إجلاء نحو 120 ألف شخص على متن طائرات متعاقبة، وفي ضربة أخيرة مؤلمة لقي 13 من أفراد القوات الأمريكية مصرعهم في تفجير انتحاري استهدف المطار قبل أربعة أيام من مغادرة آخر جندي أمريكي البلاد في 30 آب، وهكذا انتهى عقدان من الجهود البطولية نهاية يطغى عليها العار.

وتوالت الاتهامات وتبادل اللوم بعضها مبرر وبعضها الآخر غير مبرر، فقد عادت إلى السلطة بانتصار الحركة نفسها التي كانت قد آوت تنظيم القاعدة عندما كان يخطط لهجمات 11 أيلول وينفذها وتصاعدت المخاوف من عودة التهديد الإرهـابي إلى الظهور، ففي نهاية المطاف كان السبب الرئيسي الذي دفع الرؤساء الأمريكيين المتعاقبين إلى الإبقاء على القوات الأمريكية في البلاد طوال تلك المدة هو الاعتقاد بأن أفغانستان ستتحول مجدداً إلى ملاذ آمن للإرهـابيين في حال انسحابها، حتى لو لم تتمكن طالبان من فرض سيطرتها الكاملة على البلاد. لكن شيئاً من ذلك لم يحدث فعلى مدى السنوات الخمس الماضية لم تُنفذ أي عملية إرهـابية ضد الولايات المتحدة من جانب جماعة تتمركز في أفغانستان، وأنفقت واشنطن نحو تريليون دولار على الحرب فيما قُتل أو أُصيب أكثر من 120 ألف مدني أفغاني، كما نُشر أكثر من 775 ألفاً من أفراد القوات الأمريكية في أفغانستان وأصيب أكثر من 20,700 منهم فيما قُتل أكثر من 2,400، وكل ذلك من أجل التصدي لتهديد اتضح لاحقاً أنه كان مبالغاً في تقديره.

ولو كان المسؤولون الأمريكيون يعرفون آنذاك ما يعرفونه الآن لكان كثير منهم وأنا من بينهم قد دافعوا بقوة أكبر عن انسحاب مبكر، وليس من السهل تبني هذا الرأي فهو يضع موضع التساؤل تقديرات القادة وفاعلية عملية صنع السياسات وقيمة الجهد بأكمله، وربما كانت واشنطن ستصل إلى نتيجة أفضل أو على الأقل إلى حرب أقصر لو أن المسؤولين ناقشوا مسألة الانسحاب بجدية أكبر في وقت مبكر ونظروا في نطاق أوسع من تقييمات التهديد، وسعوا إلى المفاوضات في وقت أبكر واعترفوا في بعض الحالات بالتحيز الذي أوجده النفور من الهزيمة. وبعد مرور خمس سنوات لا يتمثل الخطر الأكبر في احتمال عودة أفغانستان إلى التحول إلى ملاذ آمن للإرهـابيين بل في خطر أكثر خطورة يتمثل في النسيان الجماعي، ففي الوقت الراهن نادراً ما تحظى أطول حرب أمريكية باهتمام يُذكر في الخطاب العام، ويقر الأمريكيون من حين إلى آخر بالتضحيات النبيلة التي قدمها آلاف الجنود الأمريكيين خلال الصراع. لكن البلاد مضت قدماً مدفوعة برغبة في نسيان تلك الأيام الأخيرة، وأخطر أشكال النسيان سيكون

---

* Carter Malkasian, The Afghanistan Reckoning Forever Wars and the Costs of Collective Forgetting, Foreign Affairs, June 23, 2026.

أن يعجز القادة الأمريكيون عن تذكر مدى خطورة قبول تكاليف باهظة وخسائر فادحة استجابةً لمخاوف اللحظة، إن تذكر ذلك سيساعدهم على تجنب معاناة مماثلة في المستقبل.

"أنتم تستحقون الحماية"

في 7 تشرين الأول 2001 غزا الرئيس جورج دبليو. بوش أفغانستان رداً على هجمات 11 أيلول التي هزّت العالم، وخلال أشهر تمكن تحالف من القوة الجوية الأمريكية وقوات العمليات الخاصة وعناصر الاستخبارات إلى جانب الميليشيا الأفغانية المعروفة باسم التحالف الشمالي من طرد تنظيم القاعدة والإطاحة بنظام طالبان بقيادة الملا عمر، وشُكّلت حكومة جديدة برئاسة الزعيم الأفغاني حامد كرزاي وعلى مدى السنوات الأربع التالية ساد الهدوء في البلاد على نحو خادع، وقد أسهم هذا النجاح الأولي في إغراء إدارة بوش بغزو العراق عام 2003 ما أفضى إلى حرب دامية استحوذت على معظم اهتمام واشنطن طوال السنوات الخمس التالية، وخلال تلك الفترة أعادت طالبان تنظيم صفوفها وبحلول عام 2006 بدأت تستعيد الأراضي وتفرض تحدياً جدياً على الحكومة الأفغانية. وخلال هذه المرحلة كانت الولايات المتحدة تعيش تحت وطأة الخوف من الإرهـ اب ولم تغذِّ هذا القلق أهوال هجمات 11 أيلول فحسب بل أيضاً هجمات الجمرة الخبيثة التي أعقبتها وسلسلة من التفجيرات الجهادية الدامية والمؤامرات التي أُحبطت في أوروبا خلال منتصف العقد الأول من القرن الحادي والعشرين، وكانت الحرب العالمية على الإرهـ اب مستعرة وكانت أفغانستان مسرحها الرئيسي، وكان التصدي للإرهـ اب بلا شك محور النشاط العسكري الأمريكي في البلاد وهي مهمة أكد عليها الرؤساء ووزراء الدفاع والخارجية والقادة العسكريون ورؤساء أجهزة الاستخبارات.

وكانت للولايات المتحدة طموحات أخرى في أفغانستان أيضاً من بينها مهمة لبناء الدولة هدفت إلى إقامة ديمقراطية مستدامة، وقد أعلن بوش هذا الهدف صراحة وعلى الرغم من محاولات خلفائه الابتعاد عنه فإنه ظل جزءاً ضمنياً من المشروع الأمريكي، لكن لولا التهديد الإرهـ ابي لما اندلعت الحرب ضد طالبان ولا جرى تسليح الجيش الأفغاني وتدريبه ولا بدأت جهود بناء الدولة ولا الترويج للديمقراطية، فقد كان الإرهـ اب دائماً مصدر القلق المحرك لهذه الجهود.

وبالنسبة إلى كثير من الرجال والنساء الموجودين على الأرض كانت هذه المهمة تبرر جهودهم والتضحيات التي قدموها، فقد كتب روس بيركوف الملازم في الجيش الأمريكي المتمركز في قندهار عام 2003 في مذكراته "إن 11 أيلول 2001 يوم سيظل محفوراً في الذاكرة إلى الأبد وحقيقة أن أفغانستان أصبحت مكاناً جديداً لانتشار الجنود الأمريكيين مرتبطة مباشرة بذلك اليوم المشؤوم... أنا هنا للرد، نحن هنا رداً على ذلك"، وفي مذكراته التي صدرت عام 2019 لخّص كايل كاربنتر الذي قاتل في أفغانستان ضمن قوات مشاة البحرية الأمريكية وحصل على وسام الشرف مشاعره تجاه خدمته نيابةً عن الأمريكيين قائلاً "أنتم تستحقون الحماية وتستحقون أن نقاتل من أجلكم وتستحقون أن أقضي وقتاً في سرير المستشفى وأن أحمل ندوباً عميقة على جسدي".

وهذا لا يعني أن الاستراتيجية كانت واضحة أو مقنعة دائماً، فكثير من القوات الأمريكية الموجودة على الأرض لم تكن منخرطة بصورة مباشرة في مهام مكافحة الإرهـ اب أو عمليات القوات الخاصة، وبالنسبة إلى بعضهم بدت الاشتباكات المسلحة مع مقاتلي طالبان المحليين في الجبال والصحارى النائية والتعرض لهجمات العبوات الناسفة ومحاولات بناء الحكومة والجيش الأفغانيين المتعثرين بعيدة كل البعد عن محاربة الإرهـ ابيين الدوليين الذين كانوا مصدراً للرعب، وقد بدأ بعضهم يشكك بعمق في جدوى الحرب، وهو شك كان يتحول إلى استياء عندما يُقتل أو يُصاب أحد زملائهم من أفراد الخدمة.

ومن عام 2009 إلى 2011 عملتُ مسؤولاً سياسياً في وزارة الخارجية الأمريكية في غارمسير وهي منطقة ريفية في ولاية هلمند الجنوبية، وكنت ضمن فريق صغير يضم نحو ستة مدنيين ملحقين بكتيبة من مشاة البحرية الأمريكية لتقديم المشورة إلى حاكم المنطقة والشرطة والزعماء القبليين والدينيين المحليين، وكان جميع الأفغان تقريباً في المنطقة يعتقدون أنه من دون وجود القوات الأمريكية لدعم جيش وشرطة قويين ستعود طالبان، وكان بعضهم يعتقد أن تنظيم القاعدة سيعود معها.

وبحسب ما استطعت أن أرى لم يكن هناك ما يشير إلى نشاط يُذكر لتنظيم القاعدة في غارمسير أو في مناطق أخرى من الجنوب، والحقيقة أن احتمال إعادة التنظيم لإقامة معقله الأفغاني كان أمراً يستحيل قياسه بثقة كما أن مثل هذا التهديد الغامض بالكاد بدا متناسباً مع وجود 100 ألف جندي أمريكي في البلاد آنذاك، لكن بحلول وقت مغادرتي كنت أشعر بالارتياح إزاء الإنجازات التي حققتها قوات مشاة البحرية. فقد أُخرجت طالبان من الغالبية العظمى من المنطقة وأصبح بإمكان مسؤول حكومي أفغاني التنقل من أقصى المنطقة إلى أقصاها من دون سلاح. كما أصبح أكثر من ألف جندي وشرطي أفغاني جديد منتشرين في مواقعهم ويؤدون مهامهم، وكنت أرى أن بقاء عشرات الآلاف من القوات الأمريكية في أفغانستان لم يكن ضرورياً ما دام عدد أقل منها سيبقى على المدى الطويل، وفي عام 2012 كتب كايل ويستون وأنا في هذه الصفحات أن على 25 ألفاً من المستشارين الأمريكيين وقوات العمليات الخاصة وأفراد القوات الجوية والدعم أن يبقوا في البلاد، وإلا فإن "الحكومة المركزية الأفغانية ستفقد على الأرجح السيطرة على الشرق والجنوب ذوي الأغلبية البشتونية" وأنها "بعد أن تُدفع إلى موقف دفاعي لن تتمكن من منع عودة تنظيم القاعدة إلى قلب الأراضي البشتونية الشاسعة"، وحذرنا من أن البلاد "ستتراجع سريعاً وربما بصورة لا رجعة فيها وستجر معها قدرة الولايات المتحدة على مكافحة تنظيم القاعدة".

ومن عام 2013 إلى 2014 عدت إلى أفغانستان مستشاراً مدنياً للجنرال جوزيف دانفورد قائد جميع القوات الأمريكية وقوات الحلفاء في أفغانستان، وخلال تلك السنوات كان الرئيس الأمريكي باراك أوباما قد بدأ سحب القوات الأمريكية من أفغانستان وبحلول وقت مغادرتي لم يكن قد بقي سوى أقل من 10 آلاف جندي وكان تركيزهم منصباً على تسليم مسؤولية الحرب إلى الجنود والشرطة الأفغان، إلا أنهم كانوا يتعرضون لانتكاسات في أماكن كثيرة ففي صيف عام 2014 اجتاح هجوم لطالبان مئات الجنود وأفراد الشرطة الأفغان المدججين بالسلاح في سانغين وهي نقطة استراتيجية في هلمند، وكانت تلك الهزيمة نذيراً بانتكاسات أشد وقعت في عامي 2015 و2016 واعتبر المسؤولون الأمريكيون جميعها مؤشرات على أن الحكومة الأفغانية لن تتمكن بمفردها من صد

طالبان ولا من منع إقامة ملاذ آمن لتنظيم القاعدة في أعقاب ذلك، وبالنسبة إليّ كان ذلك مؤشراً على أن تكاليف البقاء في أفغانستان ربما أصبحت أكبر من خطر الإرهـ اب الذي سيظهر في أعقاب سقوط الحكومة. وخلال ما تبقى من ولاية أوباما وخلال الولاية الأولى للرئيس دونالد ترامب كانت الحرب الأفغانية محور نقاش مستمر في البيت الأبيض، وقد تغيرت التفاصيل بمرور الوقت لكن الخيار الأساسي ظل دائماً على حاله: البقاء في البلاد بعدد صغير من القوات وهو وضع يمكن استدامته لكنه قد يستمر إلى أجل غير مسمى أو الانسحاب بما يعني أن الحكومة ستسقط عاجلاً أم آجلاً وأن التهديد الإرهـ ابي سيعود على الأرجح، ومنذ عام 2012 خلصت أجهزة الاستخبارات إلى أن القدرة الإرهـ ابية على شن هجمات ضد الولايات المتحدة يمكن أن تعيد بناء نفسها في أفغانستان خلال فترة تتراوح بين عام وثلاثة أعوام بعد انسحاب القوات الأمريكية. وأبقى ترامب على الأسس الرئيسية لاستراتيجية أوباما حتى منتصف عام 2018 عندما قرر أن الوقت قد حان لمغادرة أفغانستان وإجراء مفاوضات مباشرة مع طالبان، وكان أوباما قد سمح بإجراء محادثات بين عامي 2010 و 2014 لكن هذا المسار كان ذا أولوية منخفضة لدى إدارته، وبحلول عام 2018 كان السياق الاستراتيجي قد تغير، فقد هزم تحالف تقوده الولايات المتحدة تنظيم الدولة الإسلامية في العراق وسوريا وكان التهديد الإرهـ ابي العالمي في تراجع وبدأ يتشكل أخيراً توافق من الحزبين على ضرورة أن تنهي الولايات المتحدة حربها في أفغانستان تدريجياً، ونص الاتفاق الذي أبرمه ترامب مع طالبان ووقّع في شباط 2020 على أن تسحب واشنطن جميع قواتها العسكرية بحلول أيار 2021، وفي المقابل تعهدت طالبان بعدم السماح لتنظيم القاعدة بالتجنيد أو التدريب أو تنفيذ العمليات من الأراضي الأفغانية رغم أن طالبان رفضت قطع علاقاتها بالتنظيم.

انتصار الأشرار

عندما تولى الرئيس الأمريكي جو بايدن منصبه في كانون الثاني 2021 وجد نفسه أمام خيار صعب: الإبقاء على 2500 جندي في أفغانستان لاحتواء التهديد الإرهـ ابي أو الانسحاب وفقاً للاتفاق الذي أبرمه ترامب وكان كلا الخيارين ممكناً، فقد كان رئيس هيئة الأركان المشتركة مارك ميلي وكبار الجنرالات الأمريكيين يؤيدون البقاء معتبرين أن عمليات مكافحة الإرهـ اب يمكن تنفيذها بصورة أكثر فاعلية من داخل أفغانستان وأن استمرار الوجود العسكري الأمريكي سيحول دون سقوط الحكومة الأفغانية، وكان بايدن نفسه يشعر بقلق حقيقي إزاء الإرهـ اب وأقر بإمكانية حدوث انهيار على غرار ما حدث في سايغون لكنه كان يميل إلى الخروج من مهمة لا نهاية لها، وبالنسبة إلى بايدن كانت جائحة كوفيد-19 والمنافسة الأمريكية مع الصين والاقتصاد الأمريكي المتعثر تمثل مخاوف أكبر بكثير. وفي نيسان 2021 أعلن بايدن أن جميع القوات العسكرية الأمريكية ستنسحب بحلول 11 أيلول من ذلك العام، وكانت الإدارة تعتقد أن الحكومة الأفغانية ستتمكن من الصمود لمدة ستة أشهر على الأقل بعد ذلك الموعد، لكن كابول سقطت في آب ومنذ ذلك الحين تحكم طالبان أفغانستان بقيادة أميرها المتشدد المولوي هبة الله أخوند زاده، وقبل توليه أعلى منصب في الحركة عام 2016 كان يشغل منصب كبير قضاة المحكمة الإسلامية التابعة لطالبان وهو منصب منح قيادته شرعية دينية في نظر كثير من الأفغان ويُقال إنه أيد تفجيراً

انتحارياً نفذه ابنه في هلمند عام 2018. وعلى خطى الملا عمر لا يحكم هبة الله من كابول وإنما من قندهار المعقل التقليدي لطالبان ويحرص بشدة على الابتعاد عن الأنظار، أما في كابول فيشغل سراج الدين حقاني منصب وزير الداخلية وهو زعيم الجماعة الإرهـ ابية المعروفة باسم شبكة حقاني والعقل المدبر لعدد لا يحصى من الهجمات الانتحارية خلال سنوات الحرب، ومنها تفجير شاحنة أمام السفارة الألمانية عام 2017 أسفر عن مقتل 150 أفغانياً وإصابة 400 آخرين.

إن صعود رجال من أمثال هؤلاء هو تحديداً نوع النتيجة التي كان المسؤولون الأمريكيون يخشونها عندما كانوا يتصورون أفغانستان ما بعد الانسحاب الأمريكي، إلا أن حكم طالبان بدلًا من أن يفضي إلى حقبة جديدة من الفوضى وسفك الدماء أتاح فترة من الاستقرار النسبي، فقد عاشت البلاد في سلام طوال خمس سنوات وهي أطول فترة من الاستقرار منذ عام 1979 عندما أعقب الغزو السوفيتي عقود من الحرب. وباستثناء الهجمات المتفرقة التي ينفذها تنظيم د1عش كانت مقاومة النظام محدودة، ويخبرني الأفغان باستمرار أن البلاد أصبحت الآن "آرام" أي هادئة، ومنذ استعادتها السيطرة لم تمارس طالبان قمعاً منهجياً ضد الشعب الأفغاني، فلم تعمد الحركة بصورة منظمة إلى سجن خصومها السابقين أو أولئك الذين عملوا مع الولايات المتحدة أو حلفائها أو الحكومة الأفغانية وسمح حكام طالبان وقضاتها عمومًا لهؤلاء بمواصلة حياتهم، ويتمثل الخطر الأكبر الذي يواجهونه في أعمال عنف يرتكبها عناصر من طالبان على مستويات أدنى بدافع الضغينة أو منافسون محليون يبحثون عن ذريعة لتصفية حسابات قديمة. وربما كان أكثر جوانب حكم طالبان إثارة للدهشة حظرها زراعة الخشخاش التي جعلت من أفغانستان منذ فترة طويلة مركزاً رئيسياً في تجارة الهيروين الدولية وكانت زراعة الخشخاش مصدراً رئيسياً لإيرادات الحركة خلال الحرب، لكن هبة الله أصدر في عام 2022 مرسوماً يحظر زراعة جميع أنواع المخدرات وبيعها واستهلاكها وبفضل تطبيق هذا الحظر من خلال الجلد العلني وأحكام السجن الطويلة إلى جانب جهود القضاء على المحاصيل تراجعت زراعة الخشخاش بنحو 95% عام 2023 وفقاً لتقديرات الأمم المتحدة، وقد تمكنت طالبان من تحقيق ذلك رغم أن القرار أدى إلى انخفاض حاد في الإيرادات الضريبية التي كان بإمكانها تحصيلها وأثر سلباً في سبل عيش نحو خُمس السكان. وبالطبع شهدت البلاد أيضاً انتكاسات كبيرة فقد ركّد النمو الاقتصادي وازداد الفقر سوءاً كما تدهورت الرعاية الصحية مع توقف المساعدات الدولية لكن أكثر أوجه القصور وضوحاً يتمثل في أوضاع النساء الأفغانيات، ففي عام 2022 أصدر هبة الله مراسيم تحظر على الفتيات الالتحاق بالمدارس الثانوية والجامعات كما تواجه النساء قيوداً على العمل وعلى الخروج من منازلهن من دون مرافقة أحد أقاربهن الذكور، وقد ألحق تدهور الرعاية الصحية ضرراً خاصاً بالنساء لأن المستشفيات والعيادات كانت من بين الأماكن القليلة التي تضم كوادر متخصصة في رعايتهن. وتتجلى قسوة هذه السياسات عند مقارنتها بالتقدم الكبير الذي أحرزته النساء الأفغانيات في بعض أنحاء البلاد في مجال الحقوق والفرص خلال العقود التي كانت فيها طالبان خارج السلطة، فقد تضاعف نصيب الفرد من دخل النساء بين عامي 2000 و2013، وفي كابول على الأقل نشأ جيل من النساء الأفغانيات في ظل إمكانية الحصول على التعليم وفرص العمل والشعور بقدرتهن على بناء حياتهن الخاصة، وقد أجهضت طالبان تلك الأحلام. غير أن التطور الأهم على الإطلاق بالنسبة إلى

المصالح الأمريكية والغربية تمثل في غياب الإرهـ اب فلا توجد أدلة تُذكر على أن تنظيم القاعدة ينظم صفوفه أو يجمع الأموال أو يدرب عناصره على الأراضي الأفغانية، ويبدو أن مقاتلين وقادة من حركة طالبان الباكستانية لجأوا إلى أفغانستان بموافقة الإمارة الأفغانية حيث شنوا 700 هجوم على الأراضي الباكستانية، وأفضت الحرب الناتجة عن ذلك إلى قصف باكستان مدنًا أفغانية من بينها باغرام وكابول وبكتيا وقندهار في حين هاجمت القوات الأفغانية نقاطاً حدودية باكستانية. وفي الوقت نفسه يحتفظ تنظيم د1عش ببضعة آلاف من المقاتلين في أفغانستان وقد نفذوا هجمات بارزة ضد حكومة طالبان في كابول، لكن على مدى خمس سنوات لم يُعرف وقوع أي هجوم إرهـ ابي انطلق من أفغانستان واستهدف الولايات المتحدة، وعلى الرغم من سجل طالبان في تمكين تنظيم القاعدة وفشلها في إدارة اقتصاد البلاد، فإن الحركة لم تُسهم في نشر الإرهـ اب العالمي منذ عام 2021 بل عملت بدلاً من ذلك على احتوائه.

ولا يمكن استبعاد حدوث تحول في هذا المسار بصورة كاملة لأن قدرة واشنطن على مراقبة أفغانستان لم تعد كما كانت في عام 2020 فضلاً عن عام 2011 فقد تعجز الولايات المتحدة عن رصد التخطيط لهجمات إرهـ ابية أو عمليات التدريب في القرى الجبلية أو في الأزقة الخلفية لكابول وقندهار وجلال آباد، كما أن السنوات الخمس الماضية لم تخلُ من مؤشرات مثيرة للقلق ففي عام 2022 قتلت ضربة أمريكية أيمن الظواهري الذي خلف أسامة بن لادن في قيادة تنظيم القاعدة في دار ضيافة مرتبطة بشبكة حقاني، وفي عام 2023 خلص فريق من محققي الأمم المتحدة إلى أنه لا يزال هناك نحو 400 عنصر من تنظيم القاعدة في أفغانستان يعملون بنشاط على إعادة بناء قاعدة عمليات، وبالمثل قد يكون فرع تنظيم د1عش في أفغانستان أقوى مما يبدو عليه حالياً وقد يحول تركيزه من تقويض طالبان إلى مهاجمة المصالح الغربية. لكن الحقيقة التي لا لبس فيها هي أن حكم طالبان، حتى الآن كان قابلاً للاحتواء من منظور المصالح الأمريكية، وبعد مرور خمس سنوات على الانسحاب الأمريكي من المنصف القول إن التهديد الإرهـ ابي، الذي كان المحرك الأساسي لصنع القرار الأمريكي، قد جرى تضخيمه.

الخسارة ليست خياراً

يبقى السؤال المطروح: **لماذا أخطأ المسؤولون الأمريكيون إلى هذا الحد في تقدير مخاطر الانسحاب واختاروا البقاء طوال هذه المدة؟** كان أحد العوامل يتمثل في السياسة الداخلية، فلو لم يكن الأمريكيون العاديون قد وقعوا تحت وطأة الخوف من الجهادية بعد هجمات 11 أيلول ولو كانوا قد لمسوا بصورة أكثر حدة آثار الحرب في حياتهم اليومية لربما كانت الاحتجاجات الشعبية والحسابات الانتخابية ومعارضة الكونغرس قد دفعت رئيساً أمريكياً إلى الانسحاب في وقت أبكر بكثير، ولم تستحوذ الحرب في أفغانستان على اهتمام أو حماس كبيرين لدى الأمريكيين العاديين، فلم يواجه الرؤساء معارضة شعبية تُذكر للبقاء وكانوا يخشون أن يؤدي انهيار سريع في أعقاب الانسحاب الأمريكي إلى كارثة سياسية وهو ما حدث بالفعل مع بايدن الذي تراجعت معدلات تأييده بصورة حادة بعد أن شاهد الأمريكيون بقلق عملية إجلاء عام 2021 وهي تنزلق إلى الفوضى وسفك الدماء.

وبالنظر إلى الأحداث بأثر رجعي كانت السنوات التي أعقبت مباشرة مقتل أسامة بن لادن في أيار 2011 أفضل فرصة لإنهاء الحرب فقد كان ألد أعداء واشنطن قد قُتل وتعرض تنظيمه لضربة قاسية أضعفته بشدة، وعلاوة على ذلك كان واضحاً بحلول ذلك الوقت أن زيادة القوات التي أمر أوباما بإرسالها إلى أفغانستان عام 2009 ستكون باهظة التكلفة إلى حد يصعب معه استمرارها، وبعد نحو شهر من مقتل بن لادن أعلن أوباما سحب 33 ألف جندي أمريكي من أفغانستان بحلول أيلول 2012 وهو ما كان سيُبقي نحو 67 ألف جندي في البلاد، وقال الرئيس إن هذه القوات ستواصل الانسحاب تدريجياً حتى نهاية عام 2014 حين تنهي الولايات المتحدة مهمتها القتالية وتنتقل إلى مهمة تركز على التدريب وتقديم المشورة ومكافحة الإرهـ اب، وفي أيار 2014 أعلن أوباما أن الانسحاب سيكتمل بحلول نهاية عام 2016 لكنه تراجع عن هذا القرار في العام التالي في ظل صعود تنظيم د1عش وتقدم طالبان في أفغانستان. ولو كان الجدول الزمني للانسحاب أقصر لربما اكتمل بحلول ذلك الوقت وربما لم يكن أوباما قادراً على تغيير مساره، فهو لم يطالب بانسحاب متسرع لكنه درس بجدية خيار "الصفر"، وكان بإمكان وزارة الدفاع التي لم تكن مصممة على البقاء، أن تقدم للرئيس خيارات للانسحاب بوتيرة أسرع كما كان بإمكان أوباما نفسه أن يقرر تنفيذ الانسحاب بصورة أسرع. وعلى امتداد الحرب الأفغانية كانت هناك تحت سطح النقاشات المتعلقة بالسياسات مبررات أخرى غير معلنة للبقاء في مقدمتها الإذلال المرتبط بالهزيمة، وكانت لدى المؤسسة العسكرية تحيزات مفهومة عندما واجهت موضوع الانسحاب المؤلم، فقد شعر كثير من الجنرالات بواجب مهني يقتضي قبول أي نتيجة بينما رأى آخرون أن انتصار طالبان سيحمل وصمة عميقة، لم يكونوا يريدون الهزيمة ولم يريدوا أن تكون تضحيات جنودهم قد ذهبت سدى.

ولم يكن بوسع الجنود والجنرالات الأمريكيين النجاح في عملياتهم اليومية ما لم يتحلوا بعزيمة صارمة للتفوق على العدو في القتال، كما لم يكن بوسعهم النجاح ما لم يكترثوا بالأفغان بصورة حقيقية لا باعتبارهم مجرد بيادق في لعبة كبرى، وكان على الأفغان أيضاً أن يضعوا حياتهم على المحك وهذه نقطة تميز بين الجندي أو الضابط الموجود على الأرض وصانع السياسات في الوطن، فالتفكير الموضوعي في الاستراتيجية يتطلب قدراً من التجرد يصعب على الشخص الموجود في الخطوط الأمامية أن يتبناه، أما الالتزام العاطفي بكل ما يحمله من تحيزات فلا غنى عنه ومن الصعب على أي شخص ينتقل من الميدان إلى واشنطن أن يتجرد من هذا النوع من الالتزام، وبعبارة بسيطة فإن أحد أسباب عدم انسحاب الأمريكيين من أفغانستان في وقت أبكر هو أن الجيش الأمريكي يخوض حروبه من أجل الانتصار.

مخاطر التوافق

لم تجعل طالبان التفكير في خيار الانسحاب أكثر سهولة ففي الفترة بين عامي 2010 و2021 أبلغ ممثلو طالبان نظراءهم الأمريكيين بأنهم لا يعتزمون السماح لأي شخص على الأراضي الأفغانية بالتخطيط لشن هجوم إرهـ ابي في الخارج أو تنفيذه، لكنهم زادوا الموقف تعقيداً من خلال الإبقاء على علاقاتهم بتنظيم القاعدة، ففي عام 2019 كنت ضمن الفريق الأمريكي المفاوض الذي التقى ممثلي طالبان في قطر وقد أقروا بأنهم يتعاونون مع تنظيم

القاعدة ويريدون لأفراده أن يتمكنوا من العيش في أفغانستان في الوقت الذي رفضوا فيه الاستجابة لطلبات الولايات المتحدة تقديم ضمانات مكتوبة تحظر على التنظيم جمع الأموال والتجنيد والتدريب، وإذا كان الخطأ الأكبر لواشنطن يتمثل في المبالغة في تقدير التهديد الإرهابي أو تضخيمه فإن خطأ طالبان تمثل في إبقاء هذا التهديد قائماً من خلال رفضها في مرحلة متأخرة من المسار قطع علاقاتها بتنظيم القاعدة بصورة نهائية. لكن العامل الأهم الذي حال دون تمكن واشنطن من تقدير حجم التهديد بصورة أفضل في وقت مبكر كان القناعة الراسخة ظاهرياً لدى مختلف أجهزة الاستخبارات الأمريكية بأن خطر الإرهاب سيرتفع إذا سحبت الولايات المتحدة قواتها، وقد نتج هذا التصور عن عملية إعداد تقديرات الاستخبارات الوطنية التي تقوم بحكم تصميمها على الوصول إلى توافق في الآراء، وقد أعرب خبراء مختلفون داخل الحكومة وخارجها عن تشككهم في الاستنتاج العام لكن بصورة متفرقة وغير منتظمة وفي عملية قائمة على التوافق، كان من المحتم أن تُستبعد الآراء المخالفة تدريجياً. ومع ذلك لا يقع اللوم هنا على محللي الاستخبارات فقد كان ينبغي لصناع القرار وأعضاء الكونغرس ومستشاري السياسات وأنا من بينهم أن يطلبوا من أجهزة الاستخبارات مجموعة أوسع من التقديرات، ولتبسيط الأمر اكتفيتُ بتقدير تقريبي واحد بدلاً من طلب توقعات متعددة تعكس وجهات نظر مختلفة ثم عرضها على كبار صناع القرار، ومن المرجح أن أحد هذه التقديرات كان سيشير إلى احتمال معقول لبقاء مستوى التهديد الإرهابي الذي يستهدف الأراضي الأمريكية منخفضاً إلى أجل غير مسمى، وكان من شأن ذلك أن يضعف حجج البقاء وربما يلفت انتباه أوباما وترامب والكونغرس ووسائل الإعلام. كما أن الولايات المتحدة لم تتنبأ بالاستقرار الذي سيفضي إليه حكم طالبان ولا بقدر التساهل النسبي الذي ستبديه الحركة تجاه الأفغان الذين عارضوها، فقد كانت واشنطن تملك فهماً محدوداً للحركة إذ ظل قادتها متوارين عن الأنظار ولم يتمكن سوى عدد قليل من الأطراف الخارجية من الوصول إليهم، وقد توفي الملا عمر عام 2013 لكن بقية العالم بل ومعظم أفراد حركته نفسها لم يعلموا بوفاته إلا بعد عامين، وبالنظر إلى الماضي كانت التصورات بشأن الحركة منحازة بفعل التقارير عن تجربتها الأولى في الحكم عندما حكمت البلاد في أواخر تسعينيات القرن الماضي، ولم تكن عمليات الإعدام والرجم وغيرها من الانتهاكات منتشرة بالقدر الذي أوحت به التقارير الإعلامية في ذلك الوقت. وبالمثل أدت تعقيدات السياسة القبلية الأفغانية إلى جانب المعلومات المشوهة التي كانت تصدر عن مصادر حكومية أفغانية غير موثوقة، إلى أن يقلل المسؤولون الأمريكيون من تقدير مستوى الوحدة والتسلسل الهرمي داخل الحركة، وهو ما يفسر جزئياً نجاحها خلال السنوات الخمس الماضية.

وكان من الممكن الحد من هذه التصورات الخاطئة من خلال إعطاء الأولوية لحوار مستمر مع ممثلي طالبان في وقت أبكر بكثير، وكانت محاولات التواصل معها بين عامي 2010 و2014 صادقة لكنها افتقرت إلى الموارد الكافية، وكان من شأن التواصل مع طالبان والمعرفة بها والثقة في تلك المعرفة، أن تتعزز بدرجة كبيرة وربما أتاح ذلك فرصة أبكر لإجراء مفاوضات تنهي الحرب.

حقل الألغام الداخلي

اتسمت الحرب الأمريكية في أفغانستان بطابع مأساوي إذ لم يكن أمام الولايات المتحدة خيار سوى الانخراط في هذا الصراع لكنها لم تجد بعد ذلك سوى فرص محدودة للخروج منه، ويرى كثير ممن خدموا فيها اليوم أنها كانت هدراً للجهود والتضحيات، ويشعر بعضهم بأن الجنرالات والمسؤولين المدنيين قد خذلوهم أو تخلوا عنهم بعدما واصلوا رغم عبثية الحرب الزج بهم في مواقف عرّضتهم للخطر، وأظهر استطلاع أجراه مركز بيو للأبحاث في آب 2021 أن ثلثي قدامى المحاربين الذين شاركوا في مختلف الحروب الأمريكية يرون أن الولايات المتحدة أخفقت في تحقيق أهدافها في أفغانستان، ويستذكر بيركوف الملازم السابق في الجيش الأمريكي والمتقاعد حالياً في ختام مذكراته قائلاً "في أعقاب أحداث عام 2021 استحوذت على كثير منا أسئلة وجودية بشأن معنى خدمتنا وإرثها، لقد كافحنا وما زلنا نحاول استيعاب مشاعر الذنب أو الندم متسائلين عما إذا كانت تضحياتنا قد ذهبت حقاً سدى"، أما تيموثي كودو النقيب المتقاعد في مشاة البحرية فيعبر عن موقف أكثر حدة قائلاً "أتذكر العلم الأمريكي ذي النجوم الذي كان يرفرف فوق قاعدتي القديمة... **لقد مات خمسة رجال تحت ذلك العلم من أجل ماذا؟**"، ومن المؤلم للغاية أن آلاف العسكريين الذين خاضوا الحرب أو أُصيبوا فيها أو فقدوا أصدقاء لهم خلالها باتوا يرون اليوم أنها كانت جهداً لا يستحق كل تلك التضحيات.

ولن يتبنى الأمريكيون جميعاً ذكرى واحدة للحرب في أفغانستان أو يتفقوا على تفسير واحد لنتائجها، فإلى جانب من يرون أنها كانت هدراً هناك ضباط وأفراد في القوات المسلحة ودبلوماسيون يرون أن الحرب كانت واجباً أدوه خدمةً لبلادهم بصرف النظر عن دوافع الحكومة إلى خوضها، وهناك أيضاً مجموعة أصغر من قدامى المحاربين في الحملة الأفغانية تعتقد أن الحرب كان من الممكن الانتصار فيها، ويرى هؤلاء أن الحكومة الأفغانية كان بإمكانها الصمود بمفردها وأن طالبان كان من الممكن هزيمتها لو أن مزيداً من القوات الأمريكية بقيت في البلاد ونُفذت عمليات القوات الخاصة بوتيرة وفاعلية أكبر وأُنشئ الجيش الأفغاني على نحو أفضل أو لو أن واشنطن لم تكرر إبلاغ طالبان بعزمها على الانسحاب.

وقد أوجدت هذه المواقف المتباينة حقل ألغام أمام القادة العسكريين فعلى الضباط اليوم أن يثبتوا للقوات أنهم لن يعرّضوا أرواحها للخطر في عمليات لا تفضي إلى النصر وفي الوقت نفسه عليهم أن يثبتوا للقيادات المدنية أنهم لن يقفوا في طريق تنفيذ السياسات، ولم تشهد الولايات المتحدة ديناميكية مماثلة منذ تداعيات حرب فيتنام التي أدت إلى فقدان الأمريكيين الثقة بقادتهم العسكريين ودفعت المؤسسة العسكرية إلى إعادة تركيز جهودها على خوض الحروب التقليدية وتحويل نفسها إلى قوة عسكرية محترفة قوامها متطوعون بالكامل، وربما توفر تلك التجربة قدراً من العزاء إذ قد تسهم الدروس العديدة المستخلصة من الهزيمة في بناء قوات مسلحة أقوى وتحسين التقدير السياسي وتعزيز التدقيق في المبررات التي تُطرح لتعريض الأرواح للخطر. وتكمن قيمة حياة الجندي في صميم الجدل حول معنى الحرب الأفغانية، فخلال الجزء الأكبر من الحرب كان معظم القادة الأمريكيين ومعظم المواطنين الأمريكيين يرون أن المكاسب الأمنية تفوق تكلفة الخسائر البشرية، أما اليوم

فنادراً ما يعتقد أحد بذلك، وقد شهدت مواقف مماثلة تحولاً بعد حروب أمريكية أخرى ولا سيما حربَي فيتنام والعراق، ففي كل حالة بدا خوض الحرب في حينه أمراً بالغ الأهمية لكن بعد مرور سنوات خلص كثيرون إلى أنهم لو كانوا يعرفون آنذاك كيف ستؤول الأمور، لما أيدوا تقديم كل تلك التضحيات. ويجب على الأمريكيين ألا ينسوا هذه التحولات في المواقف، وعليهم أن يتذكروا ما يعنيه أن ينظر المرء إلى الوراء في حرب سبق أن أيدها، ثم يقول "ليتني كنت أعرف آنذاك ما أعرفه الآن".